

معركة طراز والصدام الإسلامي-الصيني في تركستان الشرقية 134هـ/751 م

شفيقة عيساني
أستاذة مساعدة (أ)
جامعة الجزائر 02

الملخص:

دأبت الصين منذ القرن الثاني قبل الميلاد في عهد أسرة هان Han dynasty (206 ق.م-220 م) على فرض وجودها العسكري في آسيا الوسطى "ما وراء النهر" لاسيما القسم الشرقي منه تركستان الشرقية - في خضم فتحها لـ "طريق الحرير التجاري" فأنشأت ما عرف بإقليم "إكزيو" Xiyu أو ما عُرف بالحدود الجديدة "الصين كيانغ Sin Kiang" الممتدة عبر جبال البامير Pamir وجبال تيان شان T'ien chan، وكان عددها ثماني حاميات عسكرية مهمتها الإدارة والسيطرة على الطريق التجاري، وإبعاد الخاقانات التركية من الوساطة التجارية. غير أن الهيمنة العسكرية الصينية في آسيا الوسطى، عرفت مصيرا مختلفا غير متوقع، فمع ظهور الإسلام وانهيار الإمبراطورية الساسانية تحت ضربات الفتح بداية القرن الأول الهجري/السابع الميلادي، شغل التواجد الإسلامي في ما وراء النهر تحديا للإمبراطورية الصينية، التي كانت تعتبر القسم الشرقي منه خاصة، تابعا لها وممرًا تجاريًا حيويًا لبضائعها نحو الممالك الغربية، وبقيت الصين على حذر وتترقب، ضمن علاقات دبلوماسية ودّية مع الخلفاء المسلمين في الظاهر وباطنها تأليب الممالك التركية ضدهم، إلى أن جاءت معركة سهل " طراز" المعروفة اليوم بـ " أوليا-أطا " Aoulié-ata الواقعة بالقرب من نهر طلاس، لذلك تعرف أيضا بمعركة طلاس، جنوب كازاخستان Kazakhzstan، حيث اصطدم الطرفان الجيوش العربية - الإسلامية التابعة للخلافة العباسية مع جيوش أسرة تانغ الصينية، ووضع فيها حدًا للنفوذ الصيني وحددت فيها الهوية الإسلامية للمنطقة إلى الأبد، وكانت بداية للتقارب الإسلامي - التركي.

الكلمات المفتاحية:

ما وراء النهر، طريق الحرير، تركستان الشرقي، أسرة تانغ، الدولة العباسية، طراز، الأتراك.

Abstract :

Since the 2nd century BC, China has been imposing its military presence in Central Asia beyond the river " Mawara enahr" during the Han dynasty, especially in its eastern part (Eastern Turkistan), within its opening of the "Silk Road". It has established what is known as the "Xiyu" territory or **the new border** " Sin Kiang" extending through the Pamir and the T'ien chen mountains. Eight military garrisons had the task of managing and controlling/dominating the commercial route, and removing the Turkish barons from the commercial mediation. However, the Chinese rule over Central Asia did not last so dominant. Actually, the emergence of Islam and the decline of the Sassanid Empire resulting from the conquest throughout the 1st century AH / 7 AD witnessed quite a different and an unexpected destiny; the Islamic presence in each region turned into a challenge for the Chinese Empire which has considered the eastern part beyond the river belonging to it, and a vital trade route to Western kingdoms. Until the Battle of Atlakh in Tarraz plain, known today as "Aoulié-ata" near the Talas River in the Republic of Kazakhstan, where the two parts collided, putting an end to the Chinese and identifying the Islamic identity to Area.

key words: East Turkistan; Tang Dynasty; Abbasid State . Mawara-el nahr Silk Road; Han Dynasty; Tarraz;

في النصف الثاني من القرن الثالث قبل الميلاد، لم تكن الصين (1)، التي أسسها الأمير الإقطاعي كين شي هوانغ دي Quin shi (2) Huang Di بحدودها الشاسعة المعروفة اليوم، حيث كانت تتمركز بداية في الحوض الأوسط لنهر هوانغ هو Houang ho النهر الأصفر، وحول سهول فرعه "وي" "Wei"، ولم تكن تهتم الصين في هذه المرحلة بـ"البلاد الغربية" وهي التسمية التي تطلقها على آسيا الوسطى (3).

وحتى حكم أسرة هان، لم يكن للصين إلا معلومات ضئيلة وغير واضحة عن البلدان الواقعة إلى الغرب من حدود جبال البولور Bolor التي مبدأها في الهندوكوش متصلة بجبال الأولوك تاغ L'oulouk-Tag.⁽⁴⁾

لكن مع نهاية القرن الثاني قبل الميلاد، تغيرت السياسة الخارجية للصين، حيث أرسل الإمبراطور وو تي Wou-ti⁽⁵⁾، عام 138 ق.م سفارة إلى الأقاليم الغربية، وكان هذا أول احتكاك فعلي للصين مع حُكّام تلك البلاد في محاولة منها لإيجاد حليف لها، حيث كانت تعاني من ضربات خصمها الشمالي وهم البدو "الهيونغ نو"-Hioung Nou⁽⁶⁾، وكان القائد تشانغ كيان Zhang Qian= Tchang K'ien على رأس حامية مكونة من مئة جندي إلى ملك مملكة اليوتشي Yue-tche ببلاد الصغد في سهول زرافشان Zérafchan (207 ق.م-200 م) بهدف التحالف معه ضد قبائل الهيونغ نو القاطنة حينها في منغوليا⁽⁷⁾، وبالرغم من فشل سفارة تشانغ كيان، إلا أن مكوثه في المنطقة طيلة 12 عاماً جعله يطلع على أهمية موقعها الاستراتيجي بالنسبة للصين باعتبارها منفذاً نحو الممالك الغربية فضلاً عن ثراء أراضيها، فسجل في هذه الرحلة كل ما يميز هذا الإقليم وحث الإمبراطورية الصينية على الاهتمام به أكثر والسعي للسيطرة عليه.⁽⁸⁾

في نفس العام الذي رجع فيه تشانغ كيان إلى الصين، أرسل الإمبراطور ووتي حملة عسكرية إلى إقليم قانسو Kan-sou عام 128 ق.م، وأسند قيادتها إلى تشانغ كيان Tchang K'ien، الذي وصلت حملته العسكرية إلى ضفاف نهر الاكسوس (جيحون)⁽⁹⁾ فمهد للسيطرة على حوض التاريم Tarim وجبال البامير، وأنشأ ما عُرف "بالحدود الجديدة" الصين كيانغ Sin Kiang وتشكل المسلكين التجاريين في جبال تيان شان، عُرف الأول بتيان شان بي لو T'ien-chan-Pe-lou وهو المسلك الشمالي المعروف أيضاً بدزونغاري، أما المسلك الثاني فهو تيان شان نان لو T'ien chan Nan Lou- يقع في الجنوب ويدعوهُ الصينيون بصين كيانغ⁽¹⁰⁾.

كما عرفت المنطقة في السجلات الصينية بالكزيو "Xiyu"⁽¹¹⁾، وقد كلفها هذا أن دخلت في صراع وحروباً ضد القبائل البدوية استمرت مدة قرنين من الزمن، لاسيما وأن الإبقاء على هذه المستوطنات في تركستان الشرقية تابعة لها شكلاً أساساً لسياستها الخارجية، وابتداءً من هذا العهد "أسرة هان" أصبح حوض التاريم بمسلكيه الشمالي والجنوبي تحت هيمنة الصين وفتح بذلك "طريق الحرير" التجاري لأول مرة⁽¹²⁾.

ونشطت التجارة بشكل ملحوظ في شمال وجنوب حوض التاريم، وكانت الفترة الممتدة من نهاية القرن الأول قبل الميلاد وبداية القرن الأول الميلادي هي الفترة التي لمست فيها الصين الأهمية الحيوية للمنطقة نتيجة المردود الإقتصادي الكبير الذي عاد إلى خزينتها من فوائد المعاملات التجارية⁽¹³⁾. أما قبائل الهيونغ نو فأصبحت تراقب حوض التاريم من خلال موقعها الإستراتيجي في مرتفعات جبال الألتاي Altaï شمالاً⁽¹⁴⁾.

والحاصل أنه مع مطلع القرن الأول الميلادي أصبح للصين حاميات أو مستوطنات في منطقة تركستان الشرقية وهي المقاطعات الثمانية موزعة على الشكل التالي: المقاطعات الشمالية من طورفان Tourfan إلى دزونغاري Dzoungari أو ما عرف بالممالك الستة، والمقاطعات الجنوبية المعروفة بالحاميات الأربع وهي: قاره شهر Karachahr، كوتشا Kutcha، كاشغر Kachghar، خوتان Khâtan، وكل هذه المقاطعات تابعة للمحافظ العام الصيني وهو بمثابة نائب الإمبراطور الصيني في المنطقة⁽¹⁵⁾.

وشرع الموظفون في القصر الإمبراطوري في جمع ما يمكن جمعه من معلومات حول الممالك والشعوب، وذلك من السفارات القادمة من الغرب ومن أفواه التجار الذين يقصدون الصين في قوافلهم التجارية لتبادل السلع، لكن في نفس الوقت لم تكن كل تلك المعلومات تتسم بالدقة المطلوبة والوضوح، ولكنها احتفظت بالسمات الأساسية فضلاً أن الهدف كان جمع أكبر قدر من المعلومات وتعريف المجتمع الصيني بها، فعُرف منذ ذلك الحين الفُرس بـ "بو- سي PO-sze" والعرب بـ "داشي Ta-che"⁽¹⁶⁾، وعُرفت الهند لديهم بـ تيان-تشو-كوي T'ien-Tchou-Koue⁽¹⁷⁾.

ودأبت الصين على تنظيم حملات عسكرية دورية من فترة إلى أخرى على المنطقة، وكانت أكثر الحملات تشبيهاً للهيمنة الصينية تلك التي قام بها القائد "بان تشاو" Pan-Tchao⁽¹⁸⁾، في العهود الأخيرة لحكم أسرة هان، حيث قام بحملات حاسمة خلال الفترة (73 م-100 م)، وسيطر على كشغر وأخضع في عام 94 م باش باليغ Bes Balik، ووصل إلى بخارى، بل وإلى حدود بحر قزوين، وكان سيهاجم الفرس وحتى الروم لولا أن أرسل إليه الإمبراطور الصيني طالباً منه العودة⁽¹⁹⁾، واستغل الخلافات بين الخيم البدوية في تحالفاته حتى يُمكن في إضعاف خصومه العنيدين فهو صاحب المقولة الشهيرة "إستخدم البرابرة لمهاجمة البرابرة"⁽²⁰⁾، وعلى هذا النحو سيطر بان تشاو على أكثر من خمسين خيمة بدوية وأرسل ولاية عهدها إلى القصر الإمبراطورية كرهائن ضماناً لوفاء وطاعة رعاياهم للحاكم الصيني⁽²¹⁾.

وأمام تعدد الهجمات من كل جانب تشنت مملكة الهيونغ نو البدوية تحت ضربات الصين من جهة والأيغور والتتار من جهة ثانية، وهربت جماعة منهم واحتمت بجال الألتاي وبعد أربعة قرون من ذلك خرجوا من أركنة كون L'Erkené -Koun، تحت قيادة حداد وذئب رمادي-حسب الروايات-واختفت تسمية الهيونغ لتحل محلها تسمية "التوكيو" أي الترك⁽²²⁾.

وفي بداية القرن السابع الميلادي هيمنت في منطقة شرق آسيا قوتين سياستين وهما: الإمبراطورية الصينية والفارسية الساسانية، وكانت دائماً على توافق كبير نظراً للمصالح التجارية المشتركة بينهما، وكان يقع بين هذين القطبين ممالك التوكيو الشرقيين T'ou kieu، أو الأون أوك "on.ok"، السهام العشر، في كل من أورخون ومنغوليا والتوكيو الغربيين الذين استوطنوا ما بين نهري سيحون وجيحون، وذلك منذ منتصف القرن السادس الميلادي (552 م)، ولم يستطع الفرس إخراجهم منها. وكانوا يتأرجحون في أوقات الضعف بالتبعية لإحدى القوتين المحاذية لهما وكان للتجارة ومنافعها أكبر العناصر المؤثرة والمحركة لعلاقة السلم والحرب بين الأطراف، حتى أن بيزنطا لم يكن لها دورٌ يذكر في تجارة الشرق حيث أنها لم تتمكن من تخطي الفرس الذين كانوا يشكلون سداً منيعاً

أمامها، منعها من تبوأ دورًا أساسيًا في ذلك المجال واكتفت بالتعامل كأكبر زبائن الفرس وسيطها التجاري⁽²³⁾.

في حين حافظت الصين على وجودها في حوض التاريم والممرات الجبلية في تيان شان والباير إلى مملكة بخارى غرباً، فكلفتها الحملات العسكرية ميزانية كبيرة، هذا دون إغفال مخصصات الهيئة الإدارية والموظفين المكلفين بتسيير هذا الإقليم الحيوي فخلال النصف الأول من القرن 8م، خصصت الصين ثلث عائداتها من تجارة الحرير إلى تمويل مصاريف إدارة حدودها الشمالية والغربية، فمن إجمالي 8,8 مليون قطعة حرير تم تخصيص 5,4 مليون قطعة منها، وهو ما يُبين حجم أهميته الاقتصادية، فقُسِّم من تلك الحصة كان يوضع تحت تصرف الجيش لتغطية حاجياته من الملابس العسكرية، وقسم كبير منها كان يوجه إلى المبادلات التجارية في الأسواق المحلية⁽²⁴⁾.

غير أن القبضة الصينية على آسيا الوسطى لم تبق على نفس القدر من الهيمنة والتحكم، فمع ظهور الإسلام وإنهيار الإمبراطورية الساسانية أمام موجة الفتح، عرفت المنطقة تحولات كبيرة امتدت لتغير أوضاعاً سياسية معقدة لكيانات مشتتة ومتصارعة ضمن أحلاف غير مستقرة لاسيما في آسيا الوسطى، فبعد انتصار المسلمين في المعركتين الحاسمتين في القادسية 16هـ/637م، وفي سهول نهاوند⁽²⁵⁾ 21هـ/642م، واصل المسلمون فتوحهم لبلاد فارس⁽²⁶⁾، وتمكن المسلمون في عام 31هـ/652م من فتح بلخ، ووصلوا بذلك إلى أقصى الحدود الشرقية للأراضي الفارسية حيث نهر بلخ (جيحون)، الفاصل بين فارس وخاقانات التوكيو الغربيين⁽²⁷⁾.

وطيلة الفتوحات الإسلامية الأولى للمنطقة، كانت الجيوش الإسلامية تغزوا ما وراء النهر في الصيف وتغنم غنائم كثيرة وتعود في الشتاء وكانت " الخاتون " تحارب كل من يأتي مدة ثم تصلحهُ، إلى أن ولى الحجاج بن يوسف الثقفي، قتيبة بن مسلم الباهلي⁽²⁸⁾ ولاية خراسان ومن خلال رصد تحركاته في المنطقة يبدو جلياً أنه كان يمتلك خطة حربية محكمة، حيث وسع من هجماته في كل الاتجاهات؛ سيطر خلالها على خوارزم في الشمال الغربي، وكل مدن بلاد الصغد كدبوسية وكشانية ونسف (نخشب)، وبخارى

وسمرقند وصالح دهاقينها⁽²⁹⁾ وأحكم سيطرته عليها⁽³⁰⁾، وفي فتحه لمدينة بخارى ذكرت المصادر أنه خرج إلى فتحها عام 87هـ/706م وأمر أصحابه بالحد في القتال فسأله أهلها الصلح فصالحهم فلما ابتعد عن بخارى مسافة خمسة فراسخ نقضوا الصلح وقتلوا العامل ومن معه، فرجع ونقب سورهم فسألوه الصلح فلم يقبل ودخلها عنوة وقتل من كان بها من المقاتلة وغنموا أواني الذهب والفضة⁽³¹⁾.

ويذكر ابن الأثير أن الفتح النهائي لبخارى كان عام في 90هـ/709م، حين أمر الحجاج القائد قتيبة المسير إليها وقتال الأتراك ببخارى، وبسقوطها في قبضة المسلمين سارع ملك الصغد طرخان سمرقند بطلب الصلح ودفع الفدية⁽³²⁾، وبالنظر لطول الفترة الزمنية التي استغرقتها عملية فتوح بخارى يبدو واضحاً أنها لم تكن سهلة، ويمكن رد ذلك إلى ما امتازت به فضلاً عن تحصينات أسوارها، وتجارها الزاهرة وخصوبة أراضيها فهي كثيرة البساتين ووفرة الحرف فيها، ساعدها ذات ثقلها الإقتصادي القوي من الصمود في وجه الحصار الحربي⁽³³⁾.

وشن قتيبة حملة واسعة لفتح منطقة أعالي نهر جيحون وسيحون في إقليم طخارستان - شمال كابل - وفتح صاغانيان وكش والشاش. وغزا أكبر المدن التجارية الجنوبية وهي بيكند عام 87هـ/706م، وذكر النرشخي أن قتيبة لقي مصاعب شديدة من أهلها لأنها كانت في غاية الحصانة، وكان أغلب أهلها تجاراً، يترددون على الصين ويركبون البحر، وكانوا شديدي الثراء، وحين غزاها قتيبة كان أغلبهم في رحلة للصين للتجارة، فخرّب المدينة وتم سبي النساء والأطفال وذكر النرشخي أنه عند عودتهم من الصين قاموا بفدية أهاليهم وقيل أنه لم تُخرّب مدينة ويُعاد تعميرها سريعاً على يد أهلها إلا بيكند⁽³⁴⁾.

وذاع صيت قتيبة وانتصاراته فقال الشاعر المختار بن كعب الجعفي واصفاً بطولاته: دَوَّخَ السُّعْدَ بالقبائل حتى ترك السُّعْدَ بالعراء قعوداً⁽³⁵⁾.

وتمكن القائد قتيبة بن مسلم من التوغل كثيرا وامتدت فتوحاته ووصل الأراضي التي كانت تحت سيطرة الإمبراطورية الصينية وجزء من حاميتها الأربعة في إقليم نان-لو Nan-lou - الحدود الجنوبية، فاجتاز جبال البولو Bolor وفتح كشغر، وكاد حينها أن يجر القوتين الصينية والإسلامية إلى التصادم العسكري، حيث يروي ابن خلدون أن في عام 96هـ/716م فتح قتيبة حامية كاشغرد، فبعث إليه الإمبراطور الصيني طالبا منه إرسال أشرف العرب من يخبروه عنهم وعن دينهم، فاختار قتيبة عشرة كان من بينهم هبيرة بن شمرج الكتابي وأخذوا معهم متاع وهدايا حسنة من أقمشة من الخز والوشي وأربعة خيول، وأمرهم بإعلامه أنه لم يصل إلى هذه الأراضي إلا ليفرض سيطرة المسلمين عليها ويدفع لهم خراجها وجزيتها⁽³⁶⁾.

وفي رأي المستشرق هنري يول H.Yulle أن الإمبراطور الصيني تمكن من أن يُجنّب بلاده حينها غزو إسلامي وشيك وذلك حين أحسن استقبال سفراء قتيبة بن مسلم، فحسب المصادر الصينية التي رجع إليها "يول" فإن السفارة المذكورة هي دون شك تلك التي استقبلها الإمبراطور هوان تسونغ Hwen Tsung عام 93هـ/713م ويُذكر أن أعضاءها رفضوا الركوع لحضرة الإمبراطور فأوشك أن يأمر بعقابهم لولا نصيحة مستشاره وأخبره أن هذا من صميم دينهم ولا يقصدون بها إهانتة، حينها أكرم الإمبراطور ضيوفه وأعجب بسجايا أعداءه⁽³⁷⁾.

كما تبين أن قتيبة بن مسلم كان قائداً جمع بين صفتين أهلته للسيطرة على ما وراء النهر، فأمام اتصافه بالخبرة العسكرية والمهارة القتالية والتفوق في وضع الخطط الحربية، كان يتمتع بحنكة سياسية نادرة، حيث كان يتبع انتصاراته العسكرية، باستمالة الأهالي بأن يرفع عنهم الضرائب التي كانوا يدفعونها للمعابد البوذية والمجوسية، ولكي يؤلف قلوبهم للإسلام شجعهم بمنحهم الكثير من العطايا.

وفي هذا السياق يرى المستشرق جيب هملتون Gib.H، أن في نعت القائد قتيبة بعديم الرحمة والمتوحش -لدى المستشرقين- فيه مبالغة كبيرة، ودليل ذلك أنه كان يلجأ إلى استخدام الديبلوماسية والحلول السلمية تماماً مثل استخدامه للقوة، وليس أدلّ عن تأثيره الإيجابي في أهالي ما وراء النهر أنه بعد مقتله أصبح يعرف بـ"قتيبة الشهيد"⁽³⁸⁾.

ومهما يكن من أمر فإن الثابت تاريخياً أن أهم مراحل الحسم في العمليات العسكرية الإسلامية في آسيا الوسطى وأكثرها رسوخاً فيها، هي تلك التي حدثت ما بين عام 85هـ-96هـ/705-715 م وذلك حين كان قتيبة بن مسلم والياً على خرسان وأميراً على جيشها⁽³⁹⁾، حيث تمكن المسلمون من الاستقرار في كل مدن ما وراء نهر جيحون إلى ما بعد نهر سيحون وضافته اليسرى، وأصبح للمسلمين موضع قدم في منطقة كيانغ أي منطقة الحدود الجديدة الصينية وأصبح الصدام الإسلامي الصيني قاب قوسين أو أدنى من الوقوع، في انتظار أن تشعله أدنى المُسببات.

وفي منتصف القرن الثامن الميلادي كانت الصين في عهد أسرة تانغ (626-907 م) في أقوى حالاتها، حيث وسعت من حدودها وسيطرت على أعدائها بإضعافهم واستغلال صراعاتهم بين الأتراك والمغول والماندشو والتبتيون، فكانت المتحكمة في حوض التاريم وحوض الإيلي L'ili ومنطقة إزيق كول Issiq-koul وطاشقند، وهي المتحكمة في ممرات البامير وتيان شان، وحامية طخارستان وكابول وكشمير، وتدير كل هذه المناطق من كوتشا Kotcha، وطيلة عهد أسرة تانغ القوية لم يكن لأحد أن يزاحم الصين في هيمنتها على ممرات تيان شان شمالاً وحدود منغوليا، وممرات جبال البامير جنوباً حيث حدود الهند وكابل فأحكمت سيطرتها وذلك باستغلال صراعات شعوب المنطقة من أتراك ومغول وماندشو وتبتيون على الأتراك الكارلوك في حوض التاريم وحوض الإيلي L'ili ومنطقة إزيق كول Issiq-Koul وطاشقند وحامية طخارستان وكابول وكشمير⁽⁴⁰⁾.

وفي أواخر العهد الأموي وبسبب سياسة الولاة الأمويين تجاه الأهالي، تآرجح حينها خاقانات بخارى وسمرقند في ولائهم بين المسلمين والصين، فأعلن ملك بخارى نفسه تابعاً للصين 718-719م، وكذلك فعل خاقان سمرقند 719-731م، وطلبوا مساعدة الإمبراطور الصيني ضد المسلمين، وهو ما فعله حاكم "طخارستان" و"قندوز" ولكن الصين ترددت واكتفت بإرسال شهادات شرفية من قبل الإمبراطور (41).

ويمكن وصف الموقف الصيني من الوجود الإسلامي في العهد الأموي بالسياسة المزدوجة ففي الظاهر يبدو التزامه الحيادي اتجاه الخلافة الإسلامية وعدم مجاهرتها بالعداء، فسادت العلاقات الدبلوماسية الجيدة بين الطرفين، حيث تذكر الحوليات الصينية التي ترجمها العالم إدوارد. شافان Chavanne. E أنه في الشهر الثاني عشر من عام 741م وصل سفير بلاد الداشي Tache (العرب) للبلاد الإمبراطوري، وقدم تحيات واحترام سيده وقد تم منحه لقب القائد العام لحرس كي.و Kiu-ou، كما كُرم بمنحه رداء بنفسجي مع زنار مزدان بالفضة وفي هذا دليل على العلاقات الجيدة التي كانت بين الطرفين (42).

لكن في الحقيقة كانت الصين تنهج نهج الدّاعم والمُحرّض لخانات الأتراك في بلاد الصغد وبلخ وإقليم طوخارستان على التمرد ضد الأمويين المسلمين بإرسال شهادات شرفية تعترف فيها بتبعية ملوك سمرقند وبخارى وفرغانة وقندوز Günduz، فلم تنقطع مراسلاتها معهم في السنوات 718، 719، 727، 731م، وكلها تحتوي على طلبات من خانات الأتراك بحماية ممالكهم وموالاتهم للصين، وكان نتيجة لهذه السياسة أن قام الأتراك بتمردات عديدة، منها ثمرّد ملك سمرقند "غوراك Ghourek" في 112-113هـ/ 730-731م بمساعدة مملكة تورغش Turgâch ولم يستعد المسلمون سمرقند نهائياً إلا في حدود 119-120هـ/ 737-738م (43).

فيبدو واضحاً أن الصين كانت تُدرك صعوبة التفوق على المسلمين في عهد الدولة الأموية في الدخول معهم في مواجهة عسكرية مباشرة، لذا عملت على إرهابهم وذلك بتشجيع التمردات الداخلية. واغتنم الإمبراطور الصيني مينغ هوانغ الأوضاع الداخلية غير المستقرة للدولة الأموية بثورة بني العباس ليعيد بسط نفوذه على كشغر وأعالى سهول قشмир وممرات جبال البامير حيث أنفذ جيشاً قوياً بقيادة كاوسيان شي Kao-Sien-tche عام 129-130هـ/747-748 ، الذي أصبح يراقب من مقره في كوتشا Koutcha، كل من بلاد التبت وتركستان وإيران والهند فتحكم في الممرات التجارية وطريق الحرير⁽⁴⁴⁾.

وعند قيام الثورة العباسية التي أطاحت بالأمويين، وقف أهالي منطقة بلاد فارس وما وراء النهر ومن ضمنهم أتراك وأهالي فرغانة إلى جانب العباسيين، سواء الذين أسلم منهم ومن لم يُسلموا، حيث سارعوا بأعداد كبيرة لنصرة أبي مسلم الخرساني، خصم عدوهم نصر بن سيار عامل بني أمية⁽⁴⁵⁾، وفرض العباسيون سيطرتهم على مدن ما وراء؛ كش وسمرقند وبخارى وغيرها وغنموا غنائم كثيرة من الأواني الصينية المنقوشة المذهبة التي لم يُرى مثلها ومن السروج الصينية ومتاع الصين كله من الديباج⁽⁴⁶⁾.

وصادف هذا التغيير في الأوضاع السياسية للخلافة الإسلامية، حادثة تاريخية غيرت موازين القوى في إقليم ما وراء النهر، ففي الوقت الذي كانت الصين تشهد تفوقها وهيمنتها على شرق المنطقة وممراتها التجارية، جاءت حادثة مقتل "تودون" ملك طاشقند، بلاد الشاش، لتعيد رسم خارطة المنطقة من جديد وتحدد مصيرها.

فقد كان ملك طاشقند من أتباع الصين وقدم لها الولاء مرات عديدة في الأعوام "125هـ/743م، 129هـ/747 م، 130هـ/748 م، كما كان من أكثر الشخصيات احتراماً في البلاط الصيني لحسن سيرته وولائه، لكن حدث في عام 132هـ/750 م أن اتهمه المفتش العام نائب الإمبراطور -المسؤول على الحاميات الصينية كاوسيان تشي Kao sien tche - بإهمال مهامه كحارس على الحدود، وبالرغم من تقديم تودون طاشقند اعتذاراته، إلا أن المفتش

العام، قام بشنّ حملة قتل فيها الحاكم التركي ونهب خزينته، وفي هذه الظروف لجأ ابن التودون المقتول مستنجداً بقبائل الكارلوك التركية المقيمة حينها على نهري طارباغاتاي Tarbagatai والأورونغو L'ouroungou، ومن الحدود الشرقية لبحيرة باخاش Lac de Balkhach إلى ضفاف نهر إرتيش L'Irtych، كما طلب المساعدة من قادة سمرقند المسلمين في بلاد الصغد⁽⁴⁷⁾.

وكان القائد زياد بن صالح هو الأمير الذي كلّفه أبو مسلم الخرساني بإدارة شؤون ما وراء النهر عام 134هـ/752م، واجتمع تحت قيادته جيش الصغد وخوارزم وأرسل إلى أبي مسلم الخرساني يطلب منه المدد لمواجهة الجيش الصيني، فأرسل إليه جند خراسان في شوال 134هـ/752م، و دعمه بجيش طخارستان بقيادة خالد بن إبراهيم وبلغ تعداد جيش زياد أكثر من عشرة آلاف، فسار بهم حتى بلغ نهر الشاس (سيحون- أموداريا) فعبره، والتقى الجيش الصيني في مواجهة الجيش العباسي وحليفه الجيش التركي الكارلوكي في سهل مدينة "أطلك" Atlakh⁽⁴⁸⁾، المعروفة اليوم بأوليا-أطا "Aoulié-ata" القريبة من نهر طلاس في جمهورية كزاخستان، فاصطدم الطرفان في شهر جويلية من عام 752م، وبعد قتال مستميت في معركة قال عنها الذهبي بأنها استغرقت يوماً كاملاً، بينما ذكرت المصادر الصينية أنها دامت خمسة أيام من القتال، انهزم خلالها الجيش الصيني، وذكر الذهبي أنه تم قتل نحو خمسين ألف جندي صيني، بينما وقع منهم عشرون ألف في الأسر بينما ذكرت المصادر الصينية أنها خسرت 30.000 جندي⁽⁴⁹⁾.

وهكذا تسبب نائب الإمبراطور أسرة تانغ، في جرّ الصين إلى مواجهة عسكرية أفقدتها مستعمراتها في آسيا الوسطى، فكانت "معركة طراز = أطلك" هي من حدّد مصير المنطقة إلى الأبد، فبدلاً أن تكون صينية كما دلت على ذلك كل المعطيات التاريخية أصبحت جزء من دار الاسلام، وأزيح الوجود الصيني من ممرات جبال تيان شان والباامير جنوباً ومعابر دزونغارى شمالاً، أما قبائل الكارلوك التركية فاكثفوا بخلافة قبيلة التورغش في زعامة الأتراك الغربيين وورثوا كل مملكتهم بحدودها، وورثوا لقب هؤلاء وهو الياغو Yabgou أي نائب الملك، حتى لا يزاحموا الأيغور في منغوليا (التركستان الشرقي) في لقب الملك قاغان Kaghan⁽⁵⁰⁾.

وكان من أهم ما أسفرت عنه معركة أطلخ حيازة الأسرى الصينيين الذين كان من بينهم خبراء في صناعات كانت حكرًا على الصينيين، كصناعة الكاغد، فأنشئ في سمرقند أول مصانع الكاغد، فأحدثت ثورة ثقافية حقيقية وأصبح يُصدّر منها إلى الأفاق.

كما كان من بين الأسرى حرفيون متخصصون في حياكة أنواع دقيقة من الحرير، وصُناع الذهب، وقد نُقل هؤلاء إلى بغداد عام 145هـ/ 762 م التي أنشأت حديثًا، وهذا حسب رواية أحد الصينيين الأسرى "دو-هوان Du-Hua'n" الذي كان من جملة الذين نقلوا إلى الكوفة، وذكر في مذكراته أن مجموعة من الفنانين والحرفيين الصينيين الأسرى نقلوا معارفهم في حياكة الحرير الشفاف الدقيق إلى المسلمين في الكوفة، وكذا تقنيات أخرى في صناعة الذهب والفضة وفن الرسم بالألوان، مشيرًا إلى أسماء هؤلاء الحرفيين ومدنهم الأصلية⁽⁵¹⁾، وتُعتبر معركة طراز هي المحك الذي تعرفت فيه الصين على قدرات المقاتلين المسلمين، حتى أنها استعانت بهم حين هدّدها جيرانها في الشمال والشمال الغربي، فلم يتردد الإمبراطور الصيني سو تسونغ Sou-tsong من الاستعانة بالعنصر العربي كمرتزقة في الجيش الإمبراطوري لمواجهة خصومه وقد أحضر هؤلاء الجنود المصحف (القرآن الكريم) معهم إلى قانسو Kansou

الهوامش:

1- حسب المؤرخ أميو جوزيف أخذ الأوروبيون تسمية الصين chine عن المسلمين العرب الذين إستخدموها للدلالة على الإمبراطورية الصينية، وقد اشتقت من تسمية أول الأسر الحاكمة والمؤسسة لها وهي أسرة تسين "T'sin" والمعروفة أيضًا بـ "كين" Qin، نسبة لمؤسسها كين شي هوان غدي. وعُرفت الصين في المصادر القديمة اليونانية كبطليموس Ptolemy وبيريبلوس Périplus بـ سينايا Sinae أو ثينايا Thinae، ووردت لدى بطليموس تحت تسمية بلاد سيرا Séra وسيرس Séres وهذه هي أشهرها وأكثرها تداولاً حتى في ما نظمه الشعراء اللاتين في عهد الإمبراطور الروماني أغسطس حيث كانت الصين معروفة لديهم لقربها من الهند وآسيا الوسطى ووُصف شعبها بـ "الذين يعيشون طويلاً" ..

للمزيد يراجع: Amiot Joseph: Mémoire concernant L'Histoire, Les sciences les Arts Les mœurs, Les usages.. Des chinois

par les missionnaires de Pekin 1780, Nyon L'ainé, Paris MDCC.LXXX, Vol05, P.1Yulle.H: op.cit., T₁, PP.14-15.

2- تسين شي هوانغ دي / Tsin Houang Di / كين شي هوانغ دي Quin Houang Di 210-259 ق.م موحّد الممالك السبعة الإقطاعية ومؤسس أول الأسر الإمبراطورية الحاكمة للصين وهي أسرة كين أو تسين، حيث قاد آخر حملاته العسكرية التي وحدّ الصين على أثرها عام 221 ق.م وكان أول من تلقّب بلقب هوان غدي Houang حيث قضى على النبلاء الإقطاعيين ونفوذهم بأن جرّدهم من السلاح وشرّع القوانين التي أرست دعائم الإمبراطورية وسارت عليها كل الأسر التي توالى على حكم الصين إلى غاية مطلع القرن العشرين ووضع الآليات الإدارية لتسيير شؤون الإمبراطورية، دُفّن في مقاطعة لين تونغ Lin Tong حيث أمر بإنشاء مقبرة للجيش المصنوع من الطين، وقد اكتشفت عام 1974.

يراجع: Schiper Kristofer: "**Shi Huangdi**" in dictionnaire de la civilisation chinoise, Encyclopaedia universalis, Albin Michel, Paris, 1998, PP.635-635.

3- Derby de thiersant, Roux Jean Paul: L'Asie centrale, Histoire et civilisation, Fayard, Paris, 1997, P.96.

4- Darby De thiersant.P: Le Mahometisme en chine et Leroux, Paris, 1878, dans le Turkestan, Oriental, T1, Ernest P.57.

5- وو.تي /Wou.ti/ وودي Wu.Di، 140-87 ق.م، إمبراطور الصين من أسرة هان "Han" عرفت الصين في عهده رخاء كبيراً، واجه خصومه الشماليين الهيونغ نو وحقق انتصارات كبيرة، اهتم بتوسيع رقعة الإمبراطورية وبسط سيطرته على المناطق الشمالية والغربية للصين.

للمزيد يُراجع: Dieny

Jean Pierre: "WUDI", in D.C.C, P.767.

6- عرفوا ب **الهيونغ نو** كما عرفوا ب **كزيونغ نو Xiong-nu**، هي تسمية صينية، يقصد بها كل القبائل البدوية التي كانت تقطن الأراضي من شمال النهر الأصفر إلى جنوب منغوليا حيث غاباتها السiberية، وقد برزت هذه القبائل على شكل إتحادية لكهنة البدو مع نهاية القرن الثالث قبل الميلاد وتزامن ذلك مع ظهور الإمبراطورية الصينية، فدخلت القوات في صراعات وحروب طاحنة أحياناً، حتى أن الصين أنشأت سورها العظيم في 214 ق.م، لحماية أراضيها من هجماتهم، وكانوا ذوي مهارات قتالية عالية، وقد تمرّسوا الهجمات المفاجئة الحاسمة، مع حيازتهم نظام استخباراتي متطور، مما جعلهم أعداء حقيقيون للصين، وحسب التصنيف العام للتسمية الصينية "الهيونغ نو" التي يقصد بها كل القبائل البدوية القاطنة في منغوليا حتى حدود القرن الثاني الميلادي، فإنه يمكن تصنيف الهون les Huns والترك، المغول والماندشو Mandchou من

الهيونغ نو، وتحت ضربات قوية من أسرة هان الصينية Dynastie des han ، تفرقوا إلى جماعات، منهم من تسرب عبر سور الصين العظيم ودخلوا الصين حيث تصبنوا بالثقافة الصينية، ومنهم من إتجه نحو الإمبراطورية الرومانية ووصلوا إلى السهول المجرية فعرفوا بالهون les Huns تحت قيادة زعيمهم أتتلا Attila. للمزيد يراجع:

Aubin françoise : Xiongnu ,in D.C.C , P.777

Cahun léon :Itroduction à l'histoire de l'Asie :turcs et Mongols des origines à 1405 ,Armand Colin ,paris,1896,P.47.

Derby thièrsant: le Mahometisme en chine, -7
P.57; De Rialle.Gerard: op.cit., P.32.

Roux Jean Paul: L'Asie centrale, P.96. -8

Chavannes Edward: Trois généraux chinoi de la Dynastie -9
des Han Orientaux, in T'oung Pao, archives concernant
l'Histoire les langues, la Géographi et l'éthnographie de l'Asie
Orientale, E.J.Brill, leide, 1906, serie2, Vol 7, P.217.

Roux Jean Paul: L'Asie, P.96-97, De thièrsant p. Debry: -10
Le Mahométisme., P.250.

11- أخذت هذه التسمية الصينية مفهومي الأول واسع ويعني البلاد الواقعة بين
الهاميات الأربعة الصينية من شرق آسيا الوسطى إلى حدود البحر الغربي
ويعني به البحر المتوسط وتضم بذلك أراضي بيرنطا وفارس والعرب التي
كانت تربطها علاقة بالصين، أما في مفهومها الثاني وهو الأدق فكان يقصد بها
منطقة الحاميات الصينية الأربعة في شرق آسيا الوسطى وهي؛ قارة شهر Kara
chahr، كوشا Kucha، كاشغرد Kashghar، خوتان Khotan.

Chang Jih- Ming: Les Musulmans sous les يراجع:
tang(618-905), Taipei, 1980, p.177.

12 -Roux Jean Paul: L'Asie, P.98. Yule Henri: Cathay and
the way thither, a collection of medieval notices of china
Vol1, Preliminay essay, London MDCCCCXV, P.58.

-13
Roux Jean Paul: L'Asie., P.98.

Grousset.R: L'Empire des steppes, attila, Gengiskhan, -14
Tamerlan, Payot, Paris, 1985, P.80.

Chang Jih-Ming: Les Musulmans. , P.177, Roux Jean -15
Paul: L'Asie P.99.

16- يشار للمسلمين العرب في المصادر الصينية بـ "داشي / تازي، Tachi/Tazi" وقد عرف العرب عند الصينيين عن طريق العنصر الفارسي، كما عُرف المسلمون الأيغور في عهد أسرة تانغ بـ هواي- هو Hwei-Ho، وفي عهد أسرة سونغ Sung Dynasty (960-1279 م) وصل عدد سفراء الداشي أكثر من عشرون سفيراً. للمزيد يراجع:

De thiérsant Debry.P: Le Mahometisme en chine, P.59;
Yulle.H: op.cit., T1, P.88

17- Dabry De Thiérsant: op.cit, P.57-58

18- بان شاو Pan'chao (32-102) من أكبر القادة العسكريين الذين أنجبهم الصين كان يُدعى بتشونغ شانغ Tchong-tcheng، من أسرة صينية فقيرة من محافظة شان سي Chên-si، كان أصغر أبناء بان بياو Pan-Piao محافظ سيو "Siu" وكان رجلاً محافظاً وحاسماً، إنتقل بان شاو إلى العاصمة رفقة أمه، ليلحق بشقيقه الذي إستدعاه الإمبراطور للعمل كموظف لدى الدولة، بينما عمل بان تشاو نساءً وبعد مدة تمرد على مهنته بحجة أنها لا تُرضي طموحه حيث قال ساخطاً عليها: أن الرجال إن لم يتمكنوا من تحقيق الأمجاد، فلا أقل من أن يحتنوا بالقادة الكبار أمثال فوكياي تسو Foukiai-tsou وتشانغ كيان Tcheng K'ien في إشارة إلى أعمالهم البطولية في تركستان الشرقي، وفي عام 73 م شارك في أحد الحملات الصينية على هامي Hami برتبة سيوما sseu-ma وظفر بالقضاء على عناصر كثيرة من الهيونغ نو في منطقة قريبة من بحيرة الباركول Lac Barkol في منغوليا ومن ثمة ذاع صيته فكلفه الإمبراطور بالقيام بعمليات عسكرية في هذه الأقاليم منذ ذلك الحين وقادها بنجاح إلى عام 100 م عندما طلب من الإمبراطور إعفاءه من مهامه نظراً لتقدمه في السن. للمزيد يراجع: Chavannes Edouard: Trois généraux, in "T.P" serie2, Vol7, 1906, PP.217-219, 220-221-239.

19- Reinaud.M: Relations Politique et commerciales de L'empire Romain avec l'Asie Orientale (L'Hycarnie, l'Inde, la bactriane et le chine), imprimerie impériale, Paris,

MDCCCLXIII, P.221; cahun Léon: op.cit, P.98.

20- Gib.H: Arab conquests., P.40; Roux Jean Paul: Histoire des turcs deux milles ans de passifique a lo.

Méditerranée, Fayard, Paris, 2000, P.48-49.

21- Reinaud.M: op.cit, P.222.

22- Cahun Léon: op.cit, P.98.

23 -Cahun léon: op.cit, P.274; Yule henri: op.cit, Vol1, P.58.

24 -Trombert Eric: Textiles et tissus sur la route de la soie, éléments pour une géographie de la production et des échanges, in: la sérindé terre déchange, Roncontre de l'école du louvre, la documentation française, Paris, P.110.

25- حسب الحوليات الصينية التي تعود إلى عهد أسرة تانغ فإن ملك البوسي "Possi" (الفارسي) يزجرد طلب مرات عديدة مساعدة الصين، لمساندته ضد المسلمين فأرسل "موشبان" أحد رجاله وكان ذلك عام 638 م، حتى أن ابنه فيروز لجأ إلى طخارستان حيث طلب المعونة من الصين لكن دون جدوى، وانتهى به المطاف في مدينة شنغان changan حيث عينه الإمبراطور عام 673م قائدا للحرس العسكري الأيمن وتوفي هناك في 677م، للمزيد يراجع: Chang Jih.Ming: les Musulmans sous les tang (618-905), Tapei, 1980, P.08-09/

26- Gib.H: Arab conquest, P.15, Boulnois luce: la route de la soie, Dieux guerriers et marchands, olizane, geneve, 2010, P.274; Jih Ming.

27 Grousset®: L'empire... P.166.

28- أبو حفص قتيبة بن أبي الصالح مسلم بن عمر بن الحصين بن ربيعة بن خالد بن أسيد الخير بن كعب بن قضاعي بن هلال الباهلي أمير خرسان زمن عبد الملك بن مروان من جهة الحجاج بن يوسف الثقفي، لأنه كان أمير العراقيين وأقام بها ثلاثة عشرة سنة، فاتح خوارزم وسمرقند وبخارى، وفتح فرغانة في أواخر عهد الوليد بن عبد الملك وبلغ قتيبة في غزو الترك والتوغل في بلاد ما وراء النهر من إفتاح قلاع واستباحة البلاد وأخذ الأموال ما لم يبلغه المهلب بن أبي صفرة ولا غيره وكان قتيبة شريفاً عاقلاً، وكان مائلاً مع الوليد بن عبد الملك على سليمان حينما أراد خلعه وتقديم ابنه عليه، فلما ولي سليمان خلعه قتيبة، فمالت عليه بنو تميم فقتل. للمزيد يراجع: البلاذري أحمد بن يحيى بن جابر ت(279هـ/892 م): كتاب جمل الأنساب الأشراف، تحقيق: سهيل زكار، رياض زركلي، دار الفكر، ط1، 1417هـ/1996 م، ج 13، ص5607؛ ابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد أبي بكر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر بيروت، 1971، ج11، صص86-87.

29- الذهبان بالكسر والضم لفظ أعجمي مُعَرَّبُ جمع دهاقنة ودهاقين، والاسم دَهَقَنَة وهي «بهاء»، والقوي على التصرف مع جذّة، كزعيم فلاحي، رئيس إقليم، التاجر. يراجع: الفيروز آبادي مجد الدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993 م، ص1546.

30- اليعقوبي: المصدر السابق، ص392.

31- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج4، ص244.

- 32- ابن الأثير: المصدر السابق، ج4، ص249، 299.
- 33- البيهقي بهجت محمد علي البيهقي: "الفتح الإسلامي لبخارى في المصادر العربية" في مجلة كلية التربية، المجلد، 23، ج.4، عدد 2012، ص1067.
- 34- البلاذري: المصدر السابق، ص419-420؛ الترشيحي: المصدر السابق، ص ص 36-37، 74.
- 35- البلاذري: المصدر السابق، ص.421، الترشيحي المصدر السابق، ص73.
- 36- ابن خلدون عبد الرحمن: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تاريخ ابن خلدون، بيت الأفكار الدولية، الأردن، ج.3، ص85.
- 37 -Yulle.H: op.cit, T1, P.91.
- 38 -Gib.H: op.cit, P.40.
- 39 -Barthold.w: op.cit, P.31; Roux Jean Paul: L'Islam en Asie, Payot.Paris, 1958, P.35.
- 40- Grousset.R: L'empire des steppes, P.171, Cahun Léon: op.cit, P.127.
- 41 -Grousset.R: L'empire des steppes, PP.719,727.
- 42 -Chavannes.E: "Notes additionnelles sur les tou-kiue", in T'oung Pao, série2, vol5, Brill, leiden 1906, P.67.
- 43 - Grousset.Réne: L'empire des steppes, P.167.
- 44 -Chavannes.E: «Documents sur les T'ou-Kieu», in «T.P», P.292; Yulle.H: op.cit, T1, P.63.
- 45 - Cahun Léon: op.cit, P.146.
- 46 - الطبري بن جرير: تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1411هـ-1991م، مج4، ص369.
- 47 -Grousset.R: L'empire, P.171; Roux Jean Paul: Histoire de turcs, PP.128, 129.
- 48- الذهبي شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والإعلام، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت 2003، مج3، ص595-596.
- 49- الذهبي: المصدر السابق، مج.3، ص595؛ Grousset.R: L'empire des steppes, P.171, Roux Jean Paul: Histoire des turcs, P.129.
- 50- Barthold.W: op.cit, P.61; Grousset.R: L'empire, P.171, Boulnois: La Route..., P.288.
- 51 -Boulnois.Luce: La Route ..., P.290.